# بطولة القتال
## في ضوء القرآن الكريم

**محمد عبد الواحد حجازي**
- القاهرة -

إنّ السبيل إلى جعل الإمكانات والتطلعات الإنسانية سبيلاً إلى التقرب إلى الله ودليلاً على الإيمان به ليس يسيراً ولا دانياً، يقول له الإنسان: «كن»، فإذا هو كائن.. إنه طريق الاجتماع الإنساني بميراثه الفكري والعلمي والأخلاقي والعقائدي.. إنه طريق الاجتماع الإنساني بتقاليده وصراعاته الطبقية وتناحراته الطائفية.. إنه طريق الاجتماع الإنساني بنفسياته وما يحيك بهذه النفسيات من أحقاد وعداوات، أو ما يتنزى بها من شهوات وأطماع، أو ما يؤرقها من وساوس ويؤججها من مخاوف.

السبيل كما قلنا ليس يسيراً ولا آمناً لهذا كان الجهاد أو القتال في سبيل الله لتحقيق إمكانات الوجود الإنساني على شريعة من أمر الله إيماناً به وتقرباً إليه هو الآية الثالثة التي يتحقق بها تمام؛ الخير يقول سبحانه: **﴿وجاهدوا في سبيل الله لعلكم تفلحون﴾**..

وتأتي آية الجهاد كصفة من صفات المؤمنين بالله لتتوج خصائص جديدة للإيمان؛ فيقول سبحانه: **﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون﴾** [سورة الحجرات، الآية/ ١٥]..

فالمؤمن هو من آمن بالله ورسوله ثم لم يشكّ في إيمانه بوحدانية الله وبرسالة رسوله (ص).. وبذلك يصبح الإيمان خالصاً لله وحده فيكون الجهاد في سبيله جهاداً بصيراً بالحق قادراً على تمييزه وإدراكه ثم تحقيقه.. فليس بعجيب إذن أن يكون الجهاد في سبيل تحقيق إمكانات الفطرة الإنسانية التي بها يتحقق الوجود الحضاري على الصورة التي تتحقق بها رسالة استخلاف الإنسان في الأرض كما شاءها الله.. ليس بعجيب أن يكون الجهاد بهذه الغاية هو ذروة عمليات الجهاد وقمتها بل هو جوهر الحركة الحضارية بأسرها في كافة أطوار مراحلها.

ففي الجهاد قدر الإنسان ومصيره.. وفي الجهاد بقاؤه وارتقاؤه أو اندحاره وفناؤه.. فهو من ثم البطولة بأعلى معانيها وأجلّ غاياتها، ومن هنا جاء بيان القرآن الكريم للجهاد كحقيقة من حقائق الوجود الإنساني فيها حياة الإنسان؛ وكفريضة واجبة محتومة وإن كلفته حياته؛ يقول سبحانه: ﴿**كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شرّ لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون**﴾ [سورة البقرة، الآية/ ٢١٦]..

وتعطي عبارة: ﴿**كتب عليكم القتال وهو كره لكم**﴾، كل فرائض الالتزام المصيري حيث لا مهرب ولا مجال للتأويل أو التمحّل.. بل إن العبارة بصيغتها المجردة لتواجه الإنسان بالفريضة سافرة عاتية لا يملك المرء إزاءها سوى الرضى والتسليم. الرضى بقضاء الله والتسليم لإرادته، رضى يحمل كل معاني الثقة في الله وتسليماً يحمل كلّ معاني الاستبشار بالغد قَرُبَ أم بَعُدَ؛ وفي هذا يقول سبحانه: ﴿**وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خيرٌ لكم**﴾..

إلّا أنّ مشاعر الثقة والاستبشار لا تفقد الضابط الذي يكبحها ويطامن من جموحها ولكنّ التعقل والتدبر يفتحان عين البصيرة والوعي حتى لا يندفع الإنسان مع التفاؤل أو يندفع مع اليأس والقنوط فتلحقه الهزيمة في الجانبين؛ وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿**وعسى أن تحبّوا شيئاً وهو شرٌّ لكم**﴾.. ثم تأتي عبارة الفاصلة: ﴿**والله يعلم وأنتم لا تعلمون**﴾، لتؤكّد أنّ ما فرضه الله هو الحقّ وأنّ في هذا الحقّ خير المسلمين لو أنعموا التفكير وأحسنوا التدبير.

هكذا صدرت فريضة القتال على المؤمنين، أو هكذا صدرت فريضة البطولة على المؤمنين..

وإذا كان القتال فريضة فلا فريضة بغير القواعد والأسس؛ وكذلك لا قتال بغير العدّة المادية والعدّة النفسية مندمجين متآصرين ومتناصرين. فالقتال أولاً ليس لذات القتال ولا لفرض مذهب

اجتماعي أو عقيدة دينية بقوة السلاح؛ إنما هو للذّود عن كلمة التوحيد وشريعة التوحيد وأمة التوحيد؛ وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿**الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً**﴾ [سورة النساء، الآية/ ٧٦]..

فمن هم أولياء الشيطان الذين فرض على المؤمنين قتالهم؟ إنهم أولياء المتآمرين أو بلغة العصر عملاء المتآمرين على المسلمين في أقطارهم وأوطانهم.. في عقيدتهم وشريعتهم.. في فكرهم وثقافتهم وعلمهم.. في رجالهم وتراثهم..

ورغم نوعية هذا التآمر واتجاهاته أو مجالاته فإنّ الآية الكريمة لا تترك إرادة الإيمان أو إرادة البطولة في وجدان المؤمنين لكيد الطاغوت وأوليائه ولعبث ضغوطه وقهره.. ولكنها تهوِّن من هذا الكيد فتصفه بالضعف؛ ولِمَ لا يكون ضعيفاً وأصحابه ضعاف لأنهم تحت ضعيف مثلهم قد باعد بينهم وبين الله؟

ولِمَ لا يكون المؤمنون أقوياء وهم يعتمدون على الله خالقهم وخالق عدوهم وخالق كل شيء؟ أجل.. ﴿**إنّ كيد الشيطان كان ضعيفاً**﴾.

فالذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله، وسبيل الله هو سبيل الحياة كأنضر ما تكون الحياة، وأكرم وأصل ما تكون الحياة.. ولن تكون الحياة نضرة كريمة إلا بشريعة الله.. ولن تكون الحياة أصيلة إلا بشريعة الله. هكذا ينبغي أن تكون الحياة، وهكذا ينبغي أن يكون القتال. وهنا تكون غاية البطولة لا القتال من أجل الحياة الدنيا أو الوجود المادي ولكن إحياء للحياة وإزكاء لها وإن غفل عن ذلك الكثيرون وهم في غمرة الأطماع وما لها من أصداء وضوضاء؛ يقول سبحانه: ﴿**فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً**﴾ [سورة النساء، الآية/ ٧٤]..

وصوناً لإرادة القتال في الإنسان أو إرادة البطولة في الإنسان فقد صدر أعنف نكير وأقساه للمؤمنين الذين أظهروا إخلاداً للحياة سواء طمعاً في مناعمها أو إجفالاً من القتال؛ فقال سبحانه: ﴿**يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله أثاقلتم إلى الأرض أَرَضِيتُمْ بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل * إلّا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ولا تضروه شيئاً والله على كلِّ شيء قدير**﴾ [سورة التوبة، الآية/ ٣٨، ٣٩]..

ها هنا عتب عنيف يصل في تصاعده إلى درجة السخرية المرة القاسية: فالآية الأولى تبدأ بقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾، فكأنه سبحانه يذكّر المسلمين بإيمانهم ويزجرهم بإيمانهم، ويعتب عليهم بإيمانهم.. ثم بعد هذا يصور ما أصاب نفوسهم من خور ووهن بتجسيد انفعالاتهم النفسية وما طرأ عليها من تحول حين نزعت بهم نوازع الفطرة إلى التعلق بشهوات الحياة؛ فيقول سبحانه للمؤمنين: ﴿ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله أثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة﴾.. ثم توزن قيمة الدنيا بميزانها الصحيح الذي يقدرها في ذاتها؛ فيقول سبحانه: ﴿فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل﴾..

وتأتي الآية الثانية نذيراً رعيباً.. نذير يستنفذ إرادة الإيمان في الإنسان وهي إرادة البطولة التي تصنع الحياة.. يأتي النذير رعيباً ليتكافأ مع ما تنتهي إليه قضية المصير الحضاري لو أعرض المؤمنون عن فريضة القتال؛ فيقول سبحانه: ﴿إلّا تنفروا يعذّبكم عذاباً أليماً﴾..

ولكن الأمر لا ينتهي عند مجرد العذاب إذ لا بد من وجود أمة تجاهد في سبيل الله.. أمة تدعو إلى الخير وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر.. أمة تقيم الحياة وتصلح مرافقها وترفع أركان عمرانها وتحقق للناس العيش الرغيد. وذلك في حدّ ذاته هو منتهى التنكيل بمن يقعدون عن النضال ومجابهة العدو خوفاً من القتال وفزعاً من القتل.. نعم، ذلك هو الجزاء الرعيب؛ فقال سبحانه: ﴿ويستبدل قوماً غيركم ولا تضروه شيئاً والله على كل شيء قدير﴾.

وليست هنا لحظة أحرج وأقسى وأشدّ زلزلة للنفس والإرادة من لحظة الصدام والمواجهة بين الجيوش المتحاربة.. إنها لحظة تتوقف عليها نتيجة المعركة إن لم تتوقف عليها مسيرة القتال بأسرها، ولذلك فإنّ أقلّ بادرة من بوادر النكوص أو أية ظاهرة من ظواهر الارتداد كيفما كانت تبريرات المنحرفين وذرائع المرتدين، كفيلة بأن تقضي على الجيش. ولذلك فقد حذر القرآن الكريم في عنف رعيب من المصير الرهيب الذي ينتظر أولئك الذين تصيبهم رعدة الجبن لحظة الصدام مع العدو أو مواجهة قواته المتقدمة.. وفي نفس الآية أعطى القرآن الكريم إرادة الإيمان أو إرادة البطولة المؤمنة الحرية الكاملة في تقدير موقفها من مواجهة العدو إذا وجدت أن الخطة التي أعدت تحتاج إلى تعديل.. فليست المواجهة البطولية في القتال اندفاعاً حيوانياً يفقد فيه المقاتل القدرة على الإدراك والتقدير..

فالقرآن الكريم إذن يعطي لإرادة القتال حريتها في الحركة والمناورة، ولكنه لا يتسامح على الإطلاق في أن تتجه الحركة إلى الإجفال والهروب؛ ولذلك فقد قال سبحانه: **﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولّوهم الأدبار ومن يولّهم يومئذ دبره إلا متحرّفاً لقتال أو متحيّزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير﴾** [سورة الأنفال، الآية ١٥ - ١٦]..

ومما يدعم إرادة القتال في موقف التصادم والمواجهة هو الثقة الراسخة في الله بالنصر.. والقرآن الكريم يحرص غاية الحرص على تأكيد الثقة في الله وتثبيت الإيمان بعونه، في نفوس المؤمنين المجاهدين؛ فقال سبحانه مخاطباً نبيه (ص): **﴿يا أيها النبيّ حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون﴾** [سورة الأنفال، الآية/ ٦٥]..

والقرآن الكريم يعالج الانفعالات النفسية التي تزدحم بها القلوب فتسيطر على الفكر والشعور سيطرة لها أثرها البالغ في قوة الصفوف المقاتلة ومسيرة القتال.. والعلاج القرآني يحسب حساب ما يصيب الإرادة من وهن وتحول عن القتال لا سيما إذا استهولت النفوس قوة العدو ورهبت جحافله وأسلحته أو خُدعت فيما يروِّج عن قوته وقدرته، يقول سبحانه: **﴿ولا تهنوا في ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون وكان الله عليماً حكيماً﴾** [سورة النساء، الآية/ ١٠٤]..

فحين تقول الآية الكريمة: **﴿ولا تهنوا في ابتغاء القوم﴾**، فإنها تصف الحالة النفسية التي تصيب المقاتل عند خوفه من الحرب أو عند إجفاله مما يتوقعه من أهوال.

ذلك لأن الوهن ضعف نفسي ترتخي فيه الأعصاب وإن ظهرت على المقاتل أعراض التوتر والضيق والعنف.. وهنا تأتي كلمة: «في ابتغاء القوم»، لتعطي إرادة الإيمان أو لتبعث فيها النفحة البطولية الكاملة للإقدام والمخاطرة.. ثم تقدم الآية الكريمة مقارنة تتميز بالحيوية والعمق، كما تتميز بالقدرة على تحريك الوجدان المؤمن في سرعة عنيفة نحو الميدان بإرادة جسورة لا تلحقها هزة النكوص أو التردد؛ يقول سبحانه: **﴿إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما يرجون وكان الله عليماً حكيماً﴾**.

ثم لتأكيد ضرر هذا النازع النفسي وخطورته فإنّ القرآن الكريم يربط مشاعر الوهن أو

الوهن في ذاته وما يمتزج به من مشاعر الأسى والحزن، بالإيمان في ذاته.. فمن وهن وحزن فقد يقينه في الإيمان أو فقد الثقة فيما يؤمن به؛ يقول سبحانه: ﴿**ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين**﴾ [سورة آل عمران، الآية/ ١٣٩]..

ولتبديد هذه المخاطر والأضرار فإن القرآن الكريم يعرض على المؤمنين لباب الحركة التاريخية في أطوارها المتعاقبة؛ وذلك في انطلاق سريع وكأن الزمان بآناته حاضر أمامهم يشهدون أحداثه؛ يقول سبحانه: ﴿**إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين**﴾ [سورة آل عمران، الآية/ ١٤٠]..

وتأتي عبارة: ﴿**إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله**﴾، لتخفف مما أصاب المسلمين من أعدائهم ولتخفف مما قد يصيبهم في غدهم.. ثم تأتي العبارة التالية: ﴿**وتلك الأيام نداولها بين الناس**﴾، لتبعث الأمل في النفوس والرجاء في القلوب والثقة في المستقبل. وهذا من شأنه أن يشدّ من أزر الصفوف ويقوي من انطلاقات السواعد ويثبت من خطا الأقدام.. وإن في قوله تعالى: ﴿**وليعلم الله الذين آمنوا**﴾، ليوجد محك الإيمان ومعياره وهو القتال في سبيل الله والثقة في قدرته والرجاء في قضائه؛ بهذا يتميز المؤمنون الصادقون ممن في قلوبهم مرض أو زيغ..

ثم تأتي عبارة: ﴿**ويتخذ منكم شهداء**﴾، لترتفع بالإيمان إلى ذروته؛ فالاستشهاد يمثل أسمى اللحظات الوجودية التي تقوم عليها حياة الوجود وحياة الإنسان. فهو روح الحضارة التي تكتب لها البقاء وتفتح لها آفاق العمل والارتقاء.. فلا قتال بغير إيمان، ولا إيمان بغير استشهاد، استشهاد في سبيل الله لا في سبيل مذهب اجتماعي أو عقيدة سياسية تتآمر على الحياة بشتى سبل التمويه والإضلال والغدر.. ولذلك فقد جاء قوله تعالى: ﴿**والله لا يحب الظالمين**﴾، ليصون الاستشهاد في سبيل الله من نزغات البغي واستمراء التقتيل والتخريب.

إذن فالاستشهاد بهذه الشرعة البطولية المتميزة بقداسة الإيمان هو أعلى مقامات البطولة وأكرمها عند الله سبحانه وأعزها منزلة وأوفاها جزاء لأن الشهيد وفّى باستشهاده خير فريضة واجبة للإنسان والحضارة والحياة.. وهذا هو الجزاء؛ يقول سبحانه: ﴿**ولا تحسبنَّ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون**﴾ [سورة آل عمران، الآية/ ١٦٩]..

ثم انظر في نوعية حياة الشهداء وهم في رحاب الله، وكيف أنهم وهم في رضوانهم على صلة

حية واقعية بالأحياء الذين يقاتلون؛ يقول سبحانه: ﴿**فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون**﴾ [سورة آل عمران، الآية/ ١٧٠]. . فللشهداء ـ وهم على صلة واعية بحقيقة الحياة وإن فقدوا مظاهر الاتصال بها ـ بشرى النعيم المقيم الذي يجدونه حقّاً لم يضيعه عليهم الذي أنعم عليهم بنعمة الاستشهاد؛ يقول سبحانه: ﴿**يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين**﴾ [سورة آل عمران، الآية/ ١٧١]. . .

فإرادة الإيمان بالله إرادة استجابة بطولية لنداء الحياة، لا يفزعها أو يقنطها ما قد تصاب به وهي في مشتجر المعارك، ولا يخيفها أو يوجسها ما قد يذيعه عدوها على لسان أوليائه وعملائه عن قوته وجبروته. . إنها ـ أي إرادة الإيمان ـ تزداد إيماناً بربها وإيماناً بقضيتها، ولا تكون زيادة إيمانها سوى التسليم ثقة بنصر الله وتأييده؛ يقول سبحانه: ﴿**الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم * الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل**﴾ [سورة آل عمران، الآية/ ١٧٢، ١٧٣]. .

وفضلاً عن هذا فإن القرآن الكريم يحصّن المؤمنين من تأثيرات الدعوات الانهزامية التي قد تتسرب إلى نفوسهم وذلك بعاملين أساسيين لهما القدرة على تثبيت أقدامهم وترسيخ صمودهم أمام عدوهم. وهذان العاملان هما: الصبر والصلاة. . وحتى يكونا شموليين فإن القرآن الكريم شمل بهما كافة أنواع الأخطار والآفات التي قد يصاب بها الإنسان وتكون مجال ابتلائه وفتنته. .

وليس الصبر هنا هو صبر العاجز ولكنه صبر المؤمن بالله الواثق من عونه، وصبر المتدبر الذي يعدّ عدّته للردّ على ما أصابه. . أما الصلاة فإنها الصلة الروحية بالله سبحانه، الصلة التي يستمد المؤمن منها لإرادته وفكره ووجدانه اليقين والإقدام والاطمئنان؛ يقول سبحانه: ﴿**يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين * ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون * ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين * الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون**﴾ [سورة البقرة، الآية/ ١٥٣، ١٥٦]. .

وعدة القتال رجال وسلاح ومال، ولإعداد الرجال لا بد من تعبئتهم وإزكاء الإيمان في

صدورهم؛ يقول سبحانه: ﴿فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك وحرض المؤمنين على القتال عسى الله أن يكفّ بأس الذين كفروا والله أشدّ بأساً وأشد تنكيلاً﴾ [سورة النساء، الآية/ ٨٤]..

ولا بد للحرب من مدد ماليّ يوفر للرجال ما يحتاجونه أو يحتاجه جهادهم من سلاح وعتاد ومؤونة.. ولذلك فإن القرآن الكريم قد أوجب الإنفاق في سبيل الله على أن يكون إنفاقاً صادراً عن صفاء إيمانيّ لا تشوبه اشارة من حرص أو شحّ يسبب لصاحبه لذعة من ألم الحسرة والندم؛ يقول سبحانه: ﴿الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منًّا ولا أذىً لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ [سورة البقرة، الآية/ ٢٦٢]..

وحتى يكون الإنفاق صادراً عن إيثار وتضحية فإن القرآن الكريم يحذر من آفة البخل في موقف من أخطر المواقف أثراً في حياة المسلمين ومصيرهم.. يحذر وفي نفس الوقت ينذر بالجزاء الرادع؛ فيقول سبحانه: ﴿ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله فمنكم من يبخل ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه والله الغنيّ وأنتم الفقراء وإن تتولّوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾ [سورة محمد، الآية/ ٣٨]..

أما عدة القتال فإن الإعجاز الفكريّ لا يأتي بها منفصلة عن المقومات الأساسية للحرب والجهاد، ولكنه يضعها في مكانها الصحيح بمكوناتها الشاملة؛ فيقول سبحانه: ﴿وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوّة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوفّ إليكم وأنتم لا تظلمون﴾ [سورة الأنفال، الآية/ ٦٠]..

فالآية الكريمة تبدأ بالأمر الحتمي الواضح الصريح: ﴿وأعدُّوا لهم﴾، أي لعدوّكم يا معشر المسلمين.. فهنا من ثم واجب والتزام فلا وقت للتهاون أو الإرجاء. وإذا كان الأمر بهذه الدرجة من الخطورة فإنه لمن البدهي ألا يتقيد الإعداد للقتال بأية شروط مقيِّدة وهذا ما تشي به كلمة: ﴿ما استطعتم﴾.. فكلّ ما يمكن الحصول عليه من عدّة للقتال أو يمكن أن تصل إليه اليد من سلاح أيًّا كان نوعه فلا ينبغي إهماله أو الإقلال من شأنه.. وتشي الكلمة أيضاً بأنه لا ينبغي الاقتصار على مصدر واحد للسلاح بل إنه ليجدر البحث عنه وكذلك صنعه بكل وسيلة مستطاعة. ولهذا فقد جاءت كلمتا: ﴿من قوة﴾، ﴿ومن رباط الخيل﴾، هكذا على التنكير لتشملا أو لتضما كل ما يمكن

أن يستحدثه العلم من أسلحة قادرة على دحر العدو؛ تقول الآية الكريمة: ﴿**ترهبون به عدو الله وعدوكم**﴾..

وليس المقصود بالإرهاب هنا مجرد إخافة العدو فحسب، ولكن الإرهاب يشمل التدمير العام لقواته وتحطيم فاعليتها بكل سبيل.. وهذا ما يؤكده قوله تعالى: ﴿**واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم**﴾ [سورة البقرة، الآية/ ١٩١].. ويؤكده أيضاً قوله تعالى: ﴿**فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإمّا منّاً بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها**﴾ [سورة محمد، الآية/ ٤]..

ولا يقتصر القتال على إرهاب العدو الظاهر بجيوشه وأسلحته ولكن من الضروري أن يمتد إلى الذين يعاونونه من عملاء وجواسيس لا يراهم المقاتلون ولكن لعملهم خطورة محسوبة في مراحل القتال وأطواره؛ وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿**وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم**﴾..

ومع هذا التكامل بين مقومات القتال فإن القرآن الكريم يحسب لكل عنصر دوره في الحرب فيعطيه حقه من التقدير والجزاء.. فليس من يقعد عن القتال كمن يجاهد بسلاحه، وليس من يجاهد بسلاحه على درجة سواء مع من ينفق من ماله في سبيل الله، ولا يستوي هؤلاء جميعاً مع من يجاهد بماله وحياته.. وذلك هو غاية العدل وغاية التدبير لمقومات النصر؛ يقول سبحانه: ﴿**لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلاً وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً**﴾ [سورة النساء، الآية/ ٩٥]..

وإرادة الإيمان لا تعرف في جهادها البطولي نزعة التشفّي والانتقام الشامل الذي يدمر ويشيع الخراب ولا يبقي على شيء.. وإنما تدافع عن ذاتها وكيانها ضد المعتدي الذي يريد أن يفرض عليها سطوته وإرادته وعقيدته كبناء اجتماعي يرغمها على الإيمان به والاستسلام له. ولذلك كان قتال المؤمنين لعدوهم دفعاً لطغيانه وبهتانه هو العدل أو حق الحياة الذي لا يماري فيه عاقل منصف؛ يقول سبحانه: ﴿**وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحبُّ المعتدين**﴾ [سورة البقرة، الآية/ ١٩٠].. ويقول سبحانه: ﴿**ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم**

من سبيل * إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم﴾ [سورة الشورى، الآية/ ٤١، ٤٢]..

وبهذه الشرعة الأخلاقية أو السياسة الأخلاقية للجهاد أو القتال في سبيل الله سار الخلفاء الراشدون مسيرتهم في جهادهم وفتوحهم.. فهذا أبو بكر الصديق رضوان الله عليه يقول في جيش أسامة بن زيد وهو يشيعه للقتال: لا تخونوا ولا تغلوا ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة، ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلاّ لمأكلة.. وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له.. وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام فإذا أكلتم منها شيئاً بعد شيء فاذكروا اسم الله عليها.. وتلقون أقواماً قد فحصوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها العصائب فاخفقوهم خفقاً.. اندفعوا باسم الله.

وبطولة القتال في القرآن الكريم لا تعرف استعلاء التجبر القتالي الذي يغري صاحبه بمواصلة القتال مهما أبدى العدو المهزوم من استسلام أو أظهر من بينات الرجوع عن مواصلة القتال..

بطولة القتال في القرآن الكريم لا تقر أسلوب الشراسة الحيوانية في الحرب، فهو يقيد القتال بمبدأين: الأول، أن تظل الحرب دائرة إلى أن تنتهي أسبابها وتخمد في إرادة العدو القدرة على استئناف القتال وذلك بغير بغي أو عدوان؛ يقول سبحانه: ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين﴾ [سورة البقرة، الآية/ ١٩٣].. والمبدأ الثاني هو أن يكون لنداء السلام الاستجابة التلقائية إذا ما رفع العدو رايتها؛ يقول سبحانه: ﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم﴾ [سورة الأنفال، الآية/ ٦١]..

هكذا جاءت بطولة القتال في ضوء القرآن الكريم في غايتها ومنهاجها..

إنها بطولة تحمل في ذاتها ويحركها الإيمان بالله.. ويحفظها من شطط التهور والانتقام أنها تعمل على إقامة الحياة وإصلاح شؤونها على شريعة الحق والعدل كما أمر الله..

نعم، هكذا جاءت إنسانية هذه البطولة.. إذن، أفلا يحقّ لإنسانها أن يكون هو الإنسان المثالي؟...